

فإنَّ الإنسانَ في حياته مُعَرَّضٌ لِلْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ؛ لِأَنَّ الحَيَاةَ بِطَبِيعَتِهَا سَلْسَلَةٌ مُتَّصِلَةٌ
الْحَلَقَاتِ مِنَ الْأَفْرَاحِ وَالْأَقْرَاحِ، وَالْمَحَابِّ وَالْمَكَارِهِ، وَالنِّعَمِ وَالْمَصَائِبِ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،
وَالأَمْنِ وَالخَوْفِ، وَالصِّحَّةِ وَالْمَوْتِ

والمؤمنُ العارفُ بدينه يُقَابِلُ النِّعَمَ بِالشُّكْرِ وَالْمَصَائِبَ بِالصَّبْرِ؛ فَذَلِكَ مَكْمَنُ الخَيْرِ فِي فَضِيلَتِي
الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ

والإنسان مطبوعٌ على الأثرِ والبَطْرِ عند حلول النعمة، ومجبولٌ على الهَلَعِ والجَزَعِ عند
حدوث المصيبة، يدخله اليأسُ ويتمكَّن من نفسه كما أخبر المولى عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿إِنَّ
الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۙ ١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۙ ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۙ ٢١ إِلَّا
الْمُصَلِّينَ ۙ ٢٢﴾ المَعَارِجِ

والمؤمنُ التَّقِيُّ يَعْلَمُ أَنَّ السَّرَّاءَ وَالضَّرَّاءَ وَسِيلَتَانِ إِلَى نَوْعَيْنِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَهُمَا: الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ؛
فَإِنَّ أَنْعَمَ عَلَيْهِ شَكَرَ وَاهْبَبَ النِّعَمَ، وَإِنْ أَخَذَ مَا أُعْطِيَ صَبَرَ مِنْ غَيْرِ هَلَعٍ وَلَا جَزَعٍ؛ فَهِيَ
أَمَانَةٌ اسْتَرَدَّهَا صَاحِبُهَا؛ فَلَا يَزِيدُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۙ ١٥٦﴾ الْبَقْرَةِ
وَالشُّكْرُ تَصَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا، وَهِيَ سَبِيلٌ لِمَعْرِفَةِ الْمُنْعَمِ، وَمَنْ عَرَفَ الْمُنْعَمَ أَحَبَّهُ وَجَدَّ فِي
السَّعْيِ إِلَيْهِ وَطَلَبَهُ؛ فَكَانَ مَعْنَى الشُّكْرِ: اسْتِعْمَالُ النِّعْمَةِ فِي إِتْمَامِ الْحِكْمَةِ الْمَطْلُوبَةِ شَرْعًا،
الْمُتَجَلِّيةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ سَبِيلُ الخَيْرِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ الْمُنْعَمِ تَسْتَلْزِمُ مَحَبَّتَهُ، وَمَحَبَّتَهُ
تَسْتَلْزِمُ شُكْرَهُ

وَأُمَّةُ الْإِسْلَامِ تَخْتَصُّ بِهَذِهِ الدَّرَجَةِ عَنِ بَقِيَّةِ الْأُمَمِ وَالْمَلَلِ حَيْثُ تَسْتَعِينُ بِنِعَمِ الْمُنْعَمِ عَلَى
طَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمَرْضَاتِهِ؛ فَلَا تَجْعَلُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا سَبِيلًا إِلَى مَعْصِيَتِهِ

وَإِذَا كَانَ الرِّضَا أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الصَّبْرِ لِكَوْنِ الْعَبْدِ قَدْ يَصْبِرُ عَلَى الْمَصِيبَةِ وَلَا يَرْضَى بِهَا، وَلَا يُحِبُّ الْمَكْرُوهَ وَلَا يَرْضَى بِنَزْوَلِهِ بِهِ؛ فَإِنَّ الشُّكْرَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الرِّضَا لِكَوْنِ الْعَبْدِ يَشْهَدُ الْمَصِيبَةَ نِعْمَةً فَيَشْكُرُ الْمُبْلَى عَلَيْهَا؛ فَيَسْتَوِي عِنْدَهُ الْمَكْرُوهُ وَالْمُحْبُوبُ فِي شُكْرِ الْمُنْعَمِ وَمَقَامِ الرِّضَا يَسْتَدْعِي كَظْمَ الْغَيْظِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ وَسَتْرَ الشُّكْوَى، وَرِعَايَةً مِنْهُ لِلْأَدَبِ، وَسُلُوكَ مَسَلِكِ الْعِلْمِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ جَاهِلَ النِّعْمَةِ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ الشُّكْرُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَتِهَا؛ فَالْجَهْلُ بِالنِّعْمَةِ وَالْغَفْلَةُ عَنْهَا مَانِعٌ لِلخَلْقِ عَنِ الشُّكْرِ، وَهُوَ غَيْرُ سَبِيلِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ يَأْمُرَانِ بِشُكْرِ اللَّهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَفِي الْمَحَابِّ وَالْمَكَارِهِ؛ فَشُكْرُهُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ مِنْ الرِّضَا بِقِضَائِهِ

* فَيَتَذَكَّرُ بِقَلْبِهِ أَنَّ مَا أَصَابَتْهُ مِنْ حَسَنَةٍ مِنْ اللَّهِ، وَمَا أُعْطِيَ شَيْئًا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِ لِيَبْلُوهُ، كَمَا جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَالَ اسْتِقْرَارِ عَرْشِ بَلْقَيْسَ عِنْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ٤٠﴾ النمل

* وَيُظْهِرُ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِلِسَانِهِ بِالذِّكْرِ وَالتَّحْمِيدِ الدَّالِّ عَلَيْهِ

* أَمَّا الشُّكْرُ بِالْجَوَارِحِ فَاسْتِعْمَالُ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِ فِي الْمَوَاضِعِ الْمَأْمُورِ بِهَا شَرْعًا مُحَقَّقًا وَمُتَمِّمًا الْحِكْمَةَ الشَّرْعِيَّةَ وَهِيَ طَاعَتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وَبِذَلِكَ يَتَمُّ شُكْرُهُ وَهُوَ خَيْرٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١]، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الشُّكْرَ مِفْتَاحَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَعَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠﴾ يونس

كما أنَّ الواجب على المؤمن الصمودُ أمامَ المصائبِ التي تحلُّ به؛ فلا ينهزم أمامها بل يتحلَّى بالصبر؛ فهو الأساس الذي بُنيت عليه قواعدُ الطاعةِ والإيمان، وتفرَّعت عنه فروعُ البرِّ والإحسان؛ فكلُّ خصالِ البرِّ والخيرِ وأحوالِ الطاعةِ مُتعلِّقةٌ بالصبرِ ومُرتبطةٌ به وجاريةٌ عليه؛ فالصبرُ إذن هو سرُّ العظيمةِ وأساسُ النجاحِ كما أخبر عن ذلك النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: «وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّصْرَعَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» (١)؛ فالمهتدي بطريق العزَّةِ يعيش في ظلِّ قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، يرضى بما اختاره الله له ولا يسخطُ على قضائه ولا ييأس من رحمته، قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُنَّ بِشْيءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ البقرة؛ فهو يثبُّ طريقه بعزيمةٍ وثباتٍ على أنواعِ البلاء، ويواجهُ صامدًا أنماطَ الكوارثِ والمصائبِ خاصَّةً عند أوَّلِ وهلةٍ، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» (٢)؛ لأنَّ في الوهلةِ الأولى هيجانَ الحزنِ واستغراقَ الذَّهنِ فيما نَزَلَ به؛ الأمرُ الذي يُفضي إلى ذهولِ عقليه، وهو محلُّ ترصُّدِ الشيطانِ اللَّعينِ له ليتمكَّن منه ليخرِّجَ به من مقامِ الرِّضا إلى درجةِ الهلعِ والجزعِ واليأسِ

لكنَّ المهتدي لطريقِ الطاعةِ والخيرِ يشعُرُ بالرِّضا، ويشكرُ ويقاومُ الحُزنَ والأسى بالصبر، ويحوِّلُ النعمةَ التي نزلتْ به إلى خيرٍ ونعمةٍ؛ فيستوي حالُ النعمةِ - عند المهتدي - بحالِ النعمة؛ إذ الشكرُ والصبرُ يُنبعان من الإيمان، وينبعثان من القلبِ المؤمنِ وحده، وليس ذلك لأحدٍ سواه؛ فهو يختصُّ بالخيرِ كُلِّه، قال صلى الله عليه وسلم: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» ٣

والحديث يُرشد إلى أن كلاً من الشكر والصبر من طبيعة الإيمان، وأن المؤمن حقاً لا بد أن يكون شاكراً صابراً لا يُستخف ولا يُستطار؛ فيصبر على اختبار الله وبلائه ويتقبل قضاءه بقبول حسن، لا يطغى مع النعمة، ولا يجزع عند الشدة، بل يرضى بكل أوامره وأحكامه

Certes, au cours de sa vie, l'homme est l'objet d'afflictions et de malheurs parce que la vie, par sa nature, n'est qu'une chaîne d'anneaux liés, et faite de joie et de tristesse, de choses aimées et d'autres détestées, de bienfaits et d'épreuves, de difficultés et d'aisance, de paix et de peur, de santé et de mort. Le croyant imprégné de sa religion reçoit les bienfaits avec gratitude et les épreuves avec endurance. C'est, là, le secret du bienfait dans les qualités de gratitude et d'endurance.

La nature humaine est sujette aux amusements et à la vanité dès la survenue des grâces, et habituée au désarroi à la survenue de l'épreuve ; l'homme est envahi par le désespoir et s'en prend à lui-même, comme Allâh le Très-Haut l'a dit : **Oui, l'homme a été créé instable. Quand le malheur le touche, il est abattu ; et quand le bonheur le touche, il est grand refusant sauf ceux qui pratiquent la Salât.** ﴿s. Al-Ma'âridj (les Voies d'ascension) : v. 19-22]

Le croyant pieux sait bien que le bonheur et le malheur sont deux moyens conduisant à deux sortes d'adoration que sont l'endurance et la gratitude. S'il est touché par un bonheur, il remercie le Donneur des biens ; et s'il lui reprend ce qu'il lui a donné, il endure sans désarroi ni inquiétude ; c'est une consignation restituée par son Propriétaire et, là, il ne dira pas plus que : **Certes, nous sommes à Allâh et c'est à Lui que nous retournerons.** ﴿s. Al-Baqara (la Vache) : v. 156

La gratitude, c'est reconnaître le bienfait et le montrer ; c'est un moyen de reconnaissance pour connaître le Bienfaiteur ; et celui qui Le reconnaîtra L'aimera et multipliera les efforts pour parvenir à Lui. Ainsi, le sens de la gratitude est l'utilisation du bienfait dans l'accomplissement de l'objectif religieux qui implique l'obéissance à Allâh le Très-Haut ; et c'est, là, le chemin de la bienfaisance parce que la connaissance du Bienfaiteur entraîne Son

amour, et Son amour implique Son remerciement. La communauté musulmane dispose, seule, ce degré parmi tout le reste des nations et religions ; elle fait recours aux grâces du Bienfaiteur (gloire à Lui) pour Lui obéir et avoir Sa gratitude ; elle ne fait pas de Sa grâce un moyen pour Lui désobéir. Et si la satisfaction est supérieure à la patience parce que le serviteur peut endurer l'épreuve sans qu'il ne l'approuve, et qu'il n'aime pas le mal et n'accepte pas qu'il lui arrive, la gratitude est, certes, à un niveau supérieur à celui de la satisfaction parce que le serviteur voit, dans l'épreuve, une faveur et remercie Allâh le Très-Haut pour cela, et, ainsi, seront égaux, à son égard, le détesté et l'affectionné lorsqu'il s'agit de remercier le Bienfaiteur.

Le niveau de la satisfaction nécessite qu'on étouffe le ressentiment subi, qu'on dissimule sa plainte, qu'on soit poli et qu'on se conduise en tant que connaisseur du bienfait, parce qu'on n'imagine pas que l'ignorant des grâces remercie avant qu'il n'ait connu ces grâces.

L'ignorance des grâces et l'insouciance envers elles sont un obstacle aux créatures en leur interdisant de remercier Allâh. Par contre, le chemin de la science et de l'éducation ordonne de remercier Allâh le Très-Haut en cas de bonheur, mais aussi en cas de malheur, pour ce qu'on affectionne et ce qu'on déteste. Le remerciement par le cœur, par la langue et par les sens fait partie du fait d'accepter notre destin. On se rappelle par son cœur que tout ce qu'on reçoit de bienfaits est d'Allâh le Très-Haut ; et tout ce que l'on reçoit c'est grâce à notre Seigneur le Tout-Puissant qui nous soumet à l'épreuve comme Il l'a dit par le biais de Soulaymân عليه السلام, qui voyait devant lui le trône de Bilqîs avant qu'il n'ait cligné de l'œil : **Cela est de la grâce de mon Seigneur pour m'éprouver si je suis reconnaissant ou si je suis ingrat. Quiconque est reconnaissant, c'est dans son propre intérêt qu'il le fait et quiconque est ingrat, alors mon Seigneur Se suffit à Lui-Même et Il est Riche et Généreux.** ﴿s. An-Naml (les Fourmis) : v. 40

On exprime sa satisfaction envers Allâh le Très-Haut par la langue en L'invoquant et en Le louant pour tout. Quant au remerciement par les sens, c'est utiliser les grâces qu'Allâh le Très-haut lui a données en toutes circonstances et lieux décidés par Allâh le Très-Haut, réalisant ainsi et accomplissant l'objectif religieux qui est l'obéissance à Lui. Par cela, la gratitude

sera complète et ce n'est que du bien ici sur terre et dans la vie de l'au-delà. Allâh le Très-Haut a dit : **Si vous êtes reconnaissants, très certainement J'augmenterai [Mes bienfaits] pour vous.** ﴿s. Ibrâhîm : v. 7, et Il a dit aussi : **Et la récompense de la vie dernière sera plus grande encore.** ﴿s. An-Nahl (les Abeilles) : v. 41 Il a fait de la gratitude la clef des gens du paradis. Il a dit : **Et ils diront : "Louange à Allâh qui nous a tenu sa promesse."** ﴿s. Az-Zoumar (les Groupes) : v. 74

Il a dit aussi : **Et à la fin de leur invocation : "Louange à Allâh Seigneur de l'Univers."** ﴿s. Yoûnous : v. 10

Comme il est du devoir du croyant d'affronter les épreuves qui le touchent ; il ne cède pas devant elles ; plutôt, il endure et c'est, là, le principe sur lequel sont fondées les bases de l'obéissance et de la croyance d'où se ramifient les branches de la bienfaisance et de la plénitude. Toutes les qualités de bienfaisance et les cas d'obéissance ont un rapport entre elles et sont liés à la patience.

La patience est, donc, le secret de la grandeur et le principe de la réussite comme l'a énoncé le Prophète صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **Sache que ce qui t'a manqué ne t'a pas été destiné, et ce qui t'a touché n'avait pas à t'éviter ; et sache que la victoire vient après la patience, et le soulagement après l'angoisse ; et qu'avec la difficulté, il y a aisance.** »(1) C'est pour cela que le guidé dans la voie de la puissance entière vit sous l'ombre de ce qu'Allâh le Très-Haut a dit : **Dis : "Tout est d'Allâh."** ﴿s. An-Niṣâ' (les Femmes) : v. 78, et se soumet au choix divin, ne s'emporte pas contre son destin et ne désespère pas de Sa miséricorde. Allâh le Très-Haut dit : **Très certainement, Nous vous éprouverons par un peu de peur, de faim et de diminution de biens, de personnes et de fruits. Et fais la bonne annonce aux endurents, qui disent quand un malheur les atteint : "Certes, nous sommes à Allâh et c'est à Lui que nous retournerons."** ; ceux-là reçoivent des bénédictions de leur Seigneur ainsi que la miséricorde ; et ceux-là sont les **biens-guidés.** ﴿[s. Al-Baqara (la Vache) : v. 155-157]

Le croyant se fraie son chemin avec résolution et constance contre toutes sortes d'épreuves, et fait face à toutes sortes de catastrophes et de malheurs,

surtout durant les premiers instants. Le Prophète صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ dit : « **La patience se manifeste au premier choc.** » Parce que le premier instant voit la montée du chagrin et le cerveau se concentre sur ce qui lui arrive, ce qui amène à la consternation et c'est, là, le moment que le maudit diable l'attend pour le faire sortir du niveau de la satisfaction pour celui du désarroi et du désespoir.

Mais celui qui est guidé sur la voie de l'obéissance et du bien ressent la satisfaction, remercie, combat le chagrin et la tristesse par la patience et transforme l'indignation qui l'a frappé en bien et en grâces. Ainsi, l'indignation, chez le guidé, sera égale à la grâce parce que la gratitude et la patience émanent de la foi et uniquement du cœur du croyant ; et nul à part lui ne peut posséder cela. Il est tout bien. Le Prophète صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ dit : « **Que le cas du croyant est étonnant ! Son cas est toujours bon et cela n'appartient qu'au croyant. Si une joie le touche, il se montre reconnaissant, ce qui est bon pour lui ; et si un malheur le touche, il patiente, ce qui est bien pour lui.** »

Le hadith signifie que les deux qualités (gratitude et patience) sont de l'essence de la foi, et le vrai croyant doit être reconnaissant et patient. Il ne se plaint pas et ne s'emporte pas ; il endure, plutôt, l'épreuve qui lui vient d'Allâh le Très-Haut, accueille bien son destin, ne dépasse pas les limites en cas de grâce et ne se met pas en désarroi en cas de difficulté. Au contraire, il se satisfait de tous les Ordres et Jugements d'Allâh le Très-Haut.